تاريخ الإرسال: 2021/10/07 تاريخ القبول: 2021/11/30 تاريخ النشر: 28 /2021/12

الإنتماء وأبعاده في المصنفات التاريخيّة الإسلاميّة المبكّرة

The belonging and its dimensions in the early islamic historical sources

د. محمّد لطيّف كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية
بتونس
mohamed.ltaief1991@gmail.com.com

الملخص: تأثرت كتابة سير الأوّلين وحياة مسلمي الأجيال الأولى بعوامل متعدّدة .فإلى جانب العوامل السياسية ، كان لفكرة الانتماء بمختلف أبعادها وزنها على المصنفات التاريخية سواء من حيث القالب أو من حيث المضمون. ولا يختزل هذا الانتماء في البعد الديني بل يشمل أيضا التعاظم بالانتماء العربيّ الذي بات حاملا لدلالات سياسية عميقة. وفضلا عن ذلك، فقد ظهرت في الكتابات التاريخية نزعة أخرى طارئة ترتبط بالعصبية للموطن والمصر. وتظهر مختلف هذه التأثيرات خصوصا في مصنفات أهل الأمصار العراقية التي شكلت مهود الحركة الفكرية والعلمية في القرون الهجرية الأولى وذلك لامتزاج الشعور الإسلامي بقوة الانتماء العربي والحميّة للموطن وللمصر لدى إخباريّيها ورواتها الذين كانوا روّاد علم التاريخ لدى العرب المسلمين.

الكلمات المفتاحية : كتابة تاريخية ؛ إسلام؛ عرب ؛ موطن ؛ أمصار.

Abstract:

Many factors impacted the historical narratives of the pioneers and the subsequent generations of the early Islam. In fact, besides to the political factors, the sense of belonging, with all its aspects, affected not only the style but also the content of Islamic early historical literature. This sense of belonging wasn't restricted to the religion itself mainly. It had wider aspects that included the race; the Arab race. This aspect held deep political significances in establishing the Islamic nation. Added to that, some other aspects of this sense of belonging emerged in the historical literature; mainly related to the region and country. These influences were especially apparant in the intellectual compositions of the Iraqi territories. These works paved the way for a scientific and intellectual movement in the first centuries of Islam because the historians of that era, who were the pioneers Muslims of the historical literature were driven by, as previously mentioned, a mixture of factors affecting their sense of belonging including the religion, the race and the country.

Keywords:. historical literature; Islam; Arabs; Country; Islamic Cities.

تاريخ الإرسال: 2021/10/07 تاريخ القبول: 2021/11/30 تاريخ النشر: 28 /2021/12

مقدمة:

اهتمت النخب الفكرية والعلمية الإسلاميّة في مختلف أجزاء الإمبراطورية وأمصارها اهتماما خاصّا بسير الأوّلين وأخبارهم. وقد كان سكّان الأمصار العراقية في طليعة المهتمّين بكتابة التاريخ وحفظ الذاكرة وذلك لما حظيت به هذه الحواضر من مركزية سياسية ولاحتضانها أهمّ التيّارات السياسيّة –الدينيّة والنخب الأرستقراطيّة التي اعتنت بتجميع عناصر الذاكرة وحفظها لأسباب متعدّدة. ومن ثمة فقد خيّمت مشاعر الاعتزاز القومي والديني على أجواء تجميع المادة التاريخية وتدوينها فجاء المأثور حاملا للهموم الحضارية للعرب ولإسقاطاتهم حول ماضي أسلافهم فشكل الانتماء العربي والانتماء الإسلامي والانتماء المحلي المستمد من سكنى في الأمصار نواة الوعي بالتاريخ ومن ثمة خلفية مؤثرة للتصنيف التأريخي والتقاط عناصر الذاكرة.

يرمي هذا العمل إلى تبيّن تأثيرات الانتماء بمختلف أبعاده على الكتابة التاريخيّة الإسلامية المبكّرة وذلك باعتبار الانتماء سواء كان دينيّا أو عرقيّا أو مجاليّا له فإلى أي مدى أثرت جملة هذه الخلفيات على الوعي والكتابة التاريخية عند المسلمين؟

1/لشعور الديني والشعور القومي لدى عرب الأمصار خلال عصر التدوين التاريخي

1-1 الخصائص العامّة لعصر التدوين

كان زمن العباسيين زمن تجميع المادة التاريخية والاشتغال على تاريخ الإسلام الأوّل ورجالاته والانتقال من المرويات الشفويّة إلى المصنفات المكتوبة التي جمع فيها أصحابها شتاتا من الأخبار والسير. وقد تميّأت لذلك جملة من الظروف الموضوعية التي أعطت دفعا للحياة الفكرية والأدبية عامّة وأعمال المؤرخين والإخباريين على وجه الخصوص تتلخّص في كون العصر العباسي قد مثّل مرحلة استفاقة الهوية العربية وتكشف الشعور الإسلامي . غير أنهما اختلفا كثيرا عن إسلام البدايات وعن الهوية القديمة للعرب فقد أضحت العروبة ظاهرة عالمية وتكشف الإسلام كنموذج حضاري كبير في العصر العباسي فتشكل وعي قوي بالتاريخ وبمأثرة التأسيس في أوساط الجاليات العربية التي انتظمت كأرستقراطيات إقليمية متماسكة واعية بتفوقها المعنوي عن سائر المجموعات الأخرى.

ولا يخلو الأمر من ارتباط بالظروف السياسية السائدة عصرئذ. فقد توقف الفتح في العصر العباسي واستقرت الإمبراطورية الإسلامية سياسيا وإداريا ودخل العرب في مرحلة جديدة يمكن اعتبارها مرحلة دعة حضارية[1] فبرز هم فكري حقيقي واستفاقة قوية للذاكرة[2]. وهي استفاقة ترتبط بدورها بتقهقر سياسي للعرب في ظل غلبة الفرس وغيرهم من الأمم على شؤون الحكم والسياسة أفضى إلى تشكل نوع من الحماس القومي لدى الأرستقراطيات العربية التي دافعت دفاعا قويا عن مأثرة الأسلاف وتراث الأولين الذي بات محلّ اهتمام السلطة السياسيّة أيضا3. وقد كانت هذه الأرستقراطيات تعمل على إظهار التطابق الأوّل الأصيل بين العروبة والإسلام[4] لا لأنه مصدر فخر قومي[5] فحسب بل لأنه علامة تفوقهم عن سائر الأمم الأخرى التي اجتمعوا معها في الدين ومن ثمّة

تاريخ الإرسال: 2021/10/07 تاريخ القبول: 2021/11/30 تاريخ النشر: 28 /2021/12

مصدر لشرعية سياسية – اجتماعية جديدة تعوّض ما فقده العرب من السؤدد والنفوذ على مستوى دوائر الحكم والتسيير. ولكن بالرغم من تراجع حظوظهم السياسية أيام العباسيين، فقد ظل أبناء العرب يشعرون بتفوق مستمدّ من مآثر وأمجاد أسلافهم انعكس بشكل كبير في ببعض المصنّفات ذات الطابع التأريخي.

أمّا دينيّا فقد شكل العصر العباسي مرحلة نضج الشعور الديني و ترسخ الإسلام لدى الجمهور. ففي هذا العهد تحديدا، أضحى الإسلام دين الإمبراطورية أي أنه وقعت مطابقة المعطى السياسي بالمعطى الديني على نطاق واسع. على أن هذه المطابقة لم تكن خيارا اتبعته السلطة بل نتيجة لتحوّل الإسلام إلى دين شعبي، محصّن بهيكل من الفقهاء ومسند بتيولوجيا وبمدونة تاريخية وأدبية مكنته من أن يترسخ لدى دوائر أكبر من المجتمع. لقد تشعّب الإسلام بصورة كبيرة في القرن الثاني إذ طورت الأوساط الفقهية[6] والمذهبية[7] متونه التيولوجية والفلسفية[8]. ولا مراء أنّ هذا المجهود الفكري قدساهم في أسلمة المجتمع العباسي وتشكّل شعور ديني قوي لدى العامة لم يظهر إلا بشكل محتشم أيام الأمويين[9] .وقد هيّأت جملة هذه العوامل للعرب المسلمين لحظة حضارية هامة للعود نحو الينابيع وإعادة ترتيب الذاكرة ترتيبا هادئا رصينا .

1. 2 أهل الأمصار الإسلامية وتمثل الماضي المشترك :

لقد توفرت في الأمصار تربة خصبة تشكل عليها تمثل عاطفي للماضي. وهو تمثل اختلطت فيه المفاخر القومية بشعور قوي بعظمة المآثر الدينية للأجيال الأولى من المسلمين. لذلك فقد انصبّ وعي الأمة، عامتها وخاصتها، على إسلام التأسيس يبحث فيه عن تأصيل للهوية والذات.

كانت الروحية الدينية في الأمصار قوية وذلك لأنّ هذه الحواضر قد ساهمت في بناء الإسلام وصنع مأثرته الحربية والسياسية في السابق وفيها اكتسب الدين الجديد شخصيته وجانبا من متونه الطقسية. كما أنها مثلت الأطر الأولى التي تطابق فيها الإسلام والعروبة إذ وحّدت الشعائر الدينية للعرب المسلمين وحوّلتهم إلى مجتمعات تضامنية واعية بنفسها. وفي مرحلة ثانية، لعبت هذه الحواضر دورا حاسما في إثراء متون الدين الجديد إذ احتضنت التيارات السياسية –الدينية الأولى والفرق والمذاهب التي أثرت مقولاتها ونظرياتها في الإسلام الديني بشكل كبير.

إذن فقد ظلّت الأمصار الإسلامية تتنفس هواء الإسلام القديم وتعيش على وقعه. ولا مراء أنها استطاعت بدورها أن تحفظ قسما من هويته القديمة والأصيلة إذ أنها مثلت مستقر الأرستقراطيات الدينية التي صانته و تعهدته باعتباره مصدر فخر ومجد عائليين أحيانا أو شرعية سياسة ورفعة اجتماعية أحيانا أخرى. وقد كان للزمن دوره في إذكاء الشعور الديني في الأمصار إذ ازدادت جاذبية الإسلام الأوّل وتضخمت الهالة التي أحيط بها رجالاته وأعلامه خلال القرون اللاحقة. فلا ريب أن هذا الردح من الزمان مكّن من هضم الإسلام وفهمه وتفكيك عناصره القديمة بهدوء حضاري لم يتوفر في عهد الفتوحات وتأسيس الإمبراطورية. لذلك، يمكن القول أن الروحية الدينية تغذت بشكل أساسي من الوقفة التأملية للبدايات أو لما وقع اعتباره تاريخا تأسيسيا[10].

تاريخ الإرسال: 2021/10/07 تاريخ القبول: 2021/11/30 تاريخ النشر: 28 /2021/12

وقد كان لارتباط الكتابة التاريخية عند المسلمين بعلم الحديث[11] أثر بالغ في إرساء تمثل للماضي تغلب عليه العاطفة الدينية. فقد أسقط الرواة والإخباريون من أتباع اتجاه أهل الحديث انجذابهم للإسلام الأوّل على ما كانوا يكتبونه من التواريخ وسير الرجال والأعلام. وتظهر لمسة أهل الحديث والأوساط الدينية خاصة في كتب الطبقات والسير، تلك التي تعنى بأخبار الصحابة والتابعين والزهاد[12]. ففضلا عن تجميع المادة الإخبارية المتعلقة بهم واقتفاء آثارهم، طوّر أصحاب هذا الجنس آلياتهم الخاصّة في تصنيف أعلام الإسلام و رجالاته إلى أجيال أو "طبقات" راعوا في تصنيفهم معاصرتهم لزمن النبي أو الخلفاء، مدى إسهامهم وأمانتهم في نقل الحديث إضافة إلى أفضالهم الشخصية ومآثرهم الخاصة. وقد أفرزت هذه المجهودات بنـــــاء سرديّا تكاملت فيه المادة الإخبارية بجهد تصنيفي هامّ[13]. غير أن آليات هذا التصنيف لم تكن ثابتة مستقرة بل تطوّرت وتغيرت تحت تأثير عوامل عديدة إذ اتسعت مفاهيم الصحبة والتابعية ومعاييرهما تدريجيا حسب مقتضيات الظروف السياسية والاجتماعية التي حفّت بعملية التدوين التاريخي[14] ويردّ ذلك إلى كون أطياف واسعة من المجتمع في العصر العباسي خصوصا قد استمّت شرعية سياسية ورفعة اجتماعية من هذا التصنيف. وهو ما أفضى إلى فكّ الارتباط تدريجيا بين أحقية نيل هذا الشرف الديني و معاصرة النبي أو خلفائه وحتى تابعيهم[15].

لقد ساهم جنس الطبقات والسير في صناعة شخصيات فذّة وفقا للمعايير التي كانت تحلّها الأوساط المذهبية – الفرقية وأهل الحديث. وقد تطور هذا الجنس التاريخي –الأدبي– المنقبي وأفرز معاييره الخاصة في إعادة تركيب مسارات الشخصيات المترجم لها باعتماد آليات روائية متسقة ومضبوطة يمكن حصرها في محورين أساسيين. أما المحور الأوّل، فيتمثل في سعي أصحاب هذه الكتابات إلى تتريل الشخصيات التي تقفوا سيرها و أخبارها في إطار ما اعتبروه الزمنية الأصيلة والأصلية للإسلام[16].

و لم يقتض منهم ذلك تعديل العتبات الزمنية التي اعتمدوها للتصنيف فحسب كما أسلفنا، بل وأيضا "تكييف" التورخة التي وضعوها لحياة الرجال مع الحدود التاريخية لزمن النبي وصحابته. فتطالعنا في المصادر صيغ سردية – تأريخية عامة ك"أدرك النبي وروى عنه" [17]أو "روى عن أبي بكر وعن عمر وعثمان" وغيرها من الصيغ التي تقحم الشخصية في زمنية التأسيس دون أن تضبط لأخبارها تواريخ دقيقة ثابتة. وقد أمعنت المصادر في تطويع التورخة و تكييفها إلى حدّ أن قدمت أحيانا، لوحات بيوغرافية تكاد تكون مجرّدة من كل علامة زمنية حول حياة الشخصية ويوفر كتاب الطبقات لابن سعد أمثلة عديدة حول هذه الآلية السردية التي توخاها الرواة والإخباريون من بناة هذا الجنس من الكتابة التاريخية. أمّا المحور الثاني فهو يقوم حول سعي الرواة والإخباريين إلى المطابقة بين الهوية العربية والهوية الإسلامية للشخصيات التي اهتموا بها فشكلوا لها مسارين سرديين متوازيين: مسار عربي ومسار إسلامي. وقد نبعت هذه المطابقة من نزعة مماهاة قوية بين العروبة والإسلام سيطرت على الدوائر الدينية خلال العصر العباسي، بما في ذلك حزام الفقهاء المحيطين بسلطة

تاريخ الإرسال: 2021/10/07 تاريخ القبول: 2021/11/30 تاريخ النشر: 28 /2021/12

وقد اقتضى ذلك من الرواة والإخباريين جهدا كبيرا لتكييف الزمنية الإسلامية حتى تستوعب زخم الحدث العربي وثراءه وهو ما دفعهم إلى إقحام أعلام العرب وأشرافهم في السردية الإسلامية وذلك بربط حيواتهم وسيرهم بزمن التأسيس. ويردّ ذلك إلى ما حمله الرواة-المحدّثون من كبير تقدير لتاريخ الأسلاف وهو تقدير نابع من الانشداد إلى إسلام البدايات الذي وقع النظر إليه بوصفه النواة الصافية للدين و للتاريخ معا.

ولئن كان الصراع بين أنصار الاتجاه القبلي وأتباع اتجاه أهل الحديث من المؤرخين والرواة على أشدّه فإن المتمعن في التقليد التاريخي، يلاحظ مدى تكامل مجهودات الفريقين بل اجتماعهما حول بعض الهواجس وتوخيهما نفس الوسائل أحيانا. وقد التقى أنصار التيارين أساسا في حول فكرة تقديس الأسلاف والسعي إلى بناء رواية إجماعية موحّدة للماضي. لهذا،

وبالتالي فقد تبلورت تدريجيا قوانين جماعية دقيقة لقراءة الماضي وترتيبه[18] وهي قوانين مستمدة إلى حدّ بعيد من شخصية وأجواء العصر[19] الذي جمّعت فيه المادة الروائية الغزيرة حول الماضي ووقعت تنقيتها ووضعها في قوالب روائية متماسكة[20]. ومن ثمة فإن القضية تردّ إلى خصائص عصر التدوين وشخصية المجتمع الإسلامي المتأخر. وقد مثل ذلك أرضية تشكيل الثقافة الإسلامية الكلاسيكية التي حملت هواجس الأمة ونظرتها لماضيها.

لقد حمل عرب الأقاليم والأمصار تقديرا للحدث العربي فاق أحيانا انجذابهم للإسلام[21]. فقد شاركت العرب أمم أخرى في الانتماء للإسلام والنهوض بأعبائه السياسية والحضارية ففقدوا تفوقهم المستمد من المأثرة الدّينية. وعندئذ، لم يعد لهذه النخب سوى ما يمكن تسميته "شرعية الانتماء القومي" لتستند عليها وتجتهد في إحيائها. حرص العرب على اقتفاء ذكرى أسلافهم في تاريخ الإسلام وربّما خارجا عنه أحيانا. لذلك فقد سهرت الأرستقراطيات العربية على ما يبدو على صناعة تاريخ يحمل هوية قومية منفصلة إلى حدّ ما عن السردية الإسلامية فانكبّت على كتابة سير القدامى وأيامهم وأشعارهم وأخبارهم ومعتقداتهم وأعرافهم فتحوّل ماضيهم الصامت والمفكك إلى لوحات سردية ثرية و جذابة[22]. ومن ثمّة وتحت تأثير تفوق الشعور القومي على الشعور الإسلامي لدى عرب الأمصار التي كانت مستقر أبناء الفاتحين الأوائل ومراكز قوية للحضور العربي ، صبغت الهوية العربية قسما من المأثور التاريخي والأدبي .

2/ . الانتماءات الترابية والإقليمية وأثرها على الوعي بالتاريخ التأسيسي وبنائه:

لم تحمل الأرستقراطيات العربية رؤية موحّدة للتاريخ القومي ولماضي الأسلاف. فقد كان لكل "عرب" من سكان الأقاليم وأهل الأمصار صيغتهم المحلية للتاريخ المشترك مما أفرز مدونة ثرية تنطوي على تنوع كبير لكنّه يبقى تنوّعا داخل في إطار الوحدة. فماهي تجلياته؟ وإلى أي مدى شكلت الذاكرة الإقليمية قاعدة الصيغة الجماعية لتاريخ الأمة الإسلامية؟

تاريخ الإرسال: 2021/10/07 تاريخ القبول: 2021/11/30 تاريخ النشر: 28 /2021/12

لا يعود ثراء التقليد التاريخي والأدبي الإسلاميين إلى الجهد الكبير للرواة والإخباريين فحسب، بل يردّ أيضا إلى مساهمة أهل الأقاليم والأمصار الإسلامية في تنويعه وتطعيمه بقراءاتهم الخاصة النابعة من تمثل محلّي للتاريخ المشترك. ويمكن القول أن الوعي الإقليمي شكّل رافدا أساسيا من روافد صناعة التاريخ ظهرت أثاره على أصعدة عدّة.

2 .1" الوعي الإقليمي" وصناعة التاريخ:

لم تكن الانتماءات الإقليمية محض مشاعر سياسية عابرة مرتبطة بتقلبات وأزمات الحكم بل أنها تطورت لتشكل هويات واعية بذاتها. وبعد أن دفعت العصبيات الإقليمية العرب إلى امتشاق السلاح دفاعا عن الأرض والموطن، فقد شكلت قاعدة تمثلهم لعروبتهم وإسلامهم ومن ثمّة وعيهم بالتاريخ.

وقد وجدت أشكال التضامن الترابي[23] سندا قويا في الإسلام، خصوصا بالنسبة للجاليات العربية القاطنة في الأقاليم والأمصار والتي باتت تشكّل أرستقراطيّات متماسكة ومؤثّرة. ففضلا عن تعزيز الرابطة الدينية لأواصر الأخوة الترابية والتضامن المجالي، غذت قوة الشعور الإسلامي الكبرياء العربية بشكل كبير إذ يعد العرب في الأقاليم والأمصار يعتبرون أنفسهم نخبة عرقية نالت شرف التغلب على أمم أخرى فحسب، بل وأيضا نخبة دينية باعتبار أنهم ينحدرون من المسلمين الأقحاح ويمثلون تواصلا حيا للإسلام الأصيل. وقد اكتسب أبناء الفاتحين وأحفادهم شرفا متأتيا من مآثر أسلافهم الذين رفعوا لواء الإسلام ونصروه ضعيفا. ثم توفرت لكل مجموعة من هذه المجموعات الإقليمية عناصر الاستقلالية والتمايز عن سائر سكان الإمبراطورية رغم ما جمعها بها من روابط الدين والعقيدة. ويبدو أن هذه الفوارق برزت بشكل أكثر وضوحا عندما لاح تطلع هذه النخب الإقليمية إلى الاستقلال سياسيا عن الخلافة في المشرق وهو ما حوّل الإمبراطورية الإسلامية إلى فضاء مفكك وغير متناسق. لقد اختلط الشعور الديني بالكبرياء الإقليمية لدى الجاليات العربية إذ أصبح لكل مجموعة شخصيتها المستقلة وهويتها الترابية ومن ثمة وعيها بذاتها. وفضلا عن ذلك، فقد تمكنت من تكييف المعطى الإسلامي مع الخصوصية المحلية فشكّلت تركيبا قويا بين العروبة والإسلام عزّز استقلاليتها واعتدادها بذاتها.

لقد أثرت الانتماءات والخصوصيات الإقليمية تأثيرا بالغا على تمثل العرب المسلمين للماضي وبالتالي على صناعة التاريخ. فلئن استندوا إلى تاريخ مشترك[24] شكل أساس شعورهم بالتفوق القومي، فقد اختلفت رؤية هذا الماضي المشترك – وبالتالي آليات صياغته وبنائه – تبعا للانتماءات المحلية والإقليمية الضيقة والمحدودة. فلم يحمل "أهل العراق" نفس رؤية " أهل الشام " أو "أهل الحجاز" وتمثلهم للماضي على سبيل المثال. وحتى على مستوى الإقليم الواحد، سادت اختلافات عميقة إذ نظر "أهل البصرة " و "أهل الكوفة " بشكل مختلف للتاريخ العربي والإسلامي[25].

لقد شكلت المجموعات العربية في الولايات التابعة للإمبراطورية مجتمعات مصغّرة و نشيطة. وبمرور الزمن ونضج هوياتها الترابية المستمدة من استقرارها في المناطق المفتوحة وبعد أن ركنت إلى شيء من الاستقرار نتيجة تراجع نسق الفتوحات والعمل العسكري أو توقفهما، بدأت هذه الأرستقراطيات في تجميع شتات الذاكرة وإعادة تركيب

تاريخ الإرسال: 2021/10/07 تاريخ القبول: 2021/11/30 تاريخ النشر: 28 /2021/12

الماضي. وقد اتجه جهدها إلى اتجاهين رئيسيين: أما أوّلهما فيقوم على استعادة التاريخ المشترك للأمة والانكباب على قراءته والعمل على إثرائه أما ثانيهما فيركّز على التاريخ المحليّ ويعمل على تركيب لوحة سردية جزئية تجمع ماضي المصر، الجهة أو الإقليم. على أن الاتجاه الأوّل ظل هو الغالب في البداية باعتبار أن جهد الرواة والإخباريين تركّز أساسا على تنزيل التاريخ المحلي ضمن السردية الإسلامية التي تمثل الأصل والأساس[26].

لكنّ النزعة الإقليمية في التأريخ اكتسبت، تدريجيا، نضجها وطورت آلياتها الخاصة. فعلى سبيل المثال انتقل الرواة والمؤرخون من البحث في فتوح المسلمين بصفة عامة إلى التأليف في فتوح الشام أو فتوح مصر وإفريقية أو الأندلس[27]. وقد طال هذا التحول أيضا أدب الطبقات والتراجم والسير فترجم الرواة لأهل العراق وأهل الحجاز وأهل مصر وأهل إفريقية بعدما كانت الجهود متركزة أساسا على سير رجال الإسلام الأوّلين من صحابة وتابعين[28].

فبم يفسّر ذلك؟ وماهي الآليات التي طورها الرواة والإخباريون للانتقال من كتابة تاريخ كبير هو تاريخ الأمة إلى تواريخ محلية وإقليمية محدودة؟

باعتبار أن المسلمين لم يتوصّلوا إلى بناء فضاء إمبراطوري متناسق[29]، فإن أهل الأقاليم والأمصار لم يحملوا أي شعور تضامني يربطهم بسكان بقية أجزاء الإمبراطورية. وقد دفعت العداوات والمفاخرات الإقليمية أهل كل مصر أو إقليم إلى الالتفاف حول ماضيهم المحليّ الذي يحمل هويتهم وينطوي على تمايزهم عن سائر المجموعات الإقليمية الأخرى. فكأنما وقع العمل تدريجيا على استبدال التاريخ المشترك الذي لم يعد ينطوي بالنسبة لأهل الأقاليم والأمصار على نفس الرمزية الأولى بتاريخ جزئي نابض وقوي تعهدته أقلام الرواة والإخباريين و عقولهم الذين كانوا يجمعون و يكتبون، في نهاية المطاف، تاريخ أقوامهم وأوطانهم[30].وقد اقتضت كتابة التواريخ المحلية و الجزئية استنباط آليات سردية جديدة أو على الأقل تكييف القديم منها مع مقتضيات تأريخ أكثر التصاقا بالإقليم و بأهله. وقد اتبع الرواة والإخباريون الإقليميون ذات المسارين الذين سار عليهما أسلافهم من مؤسسي الرواية والكتابة التاريخية في المشرق[31].

فأما المسار الأوّل، فهو يعنى بما يمكن أن نسميه السفح العربي للمجتمع المحلي ويتجلى فيه حرص الرواة والإخباريين على إظهار التفوق القومي للعرب من خلال إبراز أمجادهم القديمة، أخبارهم وبطولاتهم قبل الإسلام وبعده[32]. ويظهر كل ذلك في كتب التاريخ العام وكتب التراجم على السواء. وأما المسار الثاني، فيهتم بالزمنية الإسلامية أو بالمرحلة الإسلامية من التاريخ الإقليمي والمحلي. وتلتقي في هذا المستوى عملية اقتفاء التاريخ الحدثي وتجميع شتات الأخبار بالعمل على تأصيل الشخصيات الإقليمية في التربة الإسلامية بإلحاقها بزمر الصحابة أو التابعين وغيرهم. وقد أفضى ذلك إلى تغيّر مفهوم الصحبة والتابعية وتوسيعهما بشكل كبير[33] حتى يتمكن الرواة والإخباريون من ربط التاريخ المحلي بالتاريخ الكبير الذي استمدت منه فئات عديدة من المجتمع شرعيتها وتفوقها. أثرى الوعي الإقليمي صناعة

تاريخ الإرسال: 2021/10/07 تاريخ القبول: 2021/11/30 تاريخ النشر: 28 /2021/12

التاريخ إذن. ولئن حال دون تشكل رؤية موحّدة ومشتركة للماضي، فقد شكّل ضربا من ضروب التطابق بين الإسلام والعروبة من ناحية والانتماء الترابي الإقليمي[34] من ناحية أخرى.

عزّز الشعور الديني التضامن الإقليمي الذي ظهر صلب الجاليات العربية في أطراف الإمبراطورية الإسلامية. وقد أفضى هذا التركيب الإيديولوجي إلى بروز نزعة لدى الرواة و المؤرخين الإقليميين، تتمثل في محاولة الربط بين التاريخ المحلي والتاريخ المشترك للأمة من خلال تنزيل سير الأسلاف في ما اعتبروه السردية المقدسة للإسلام.

2. 2 تأصيل سير "الأسلاف المحليّين " في تربة الإسلام الأولي:

كانت الأمصار الإسلامية الأولى وجهة ومستقر النخبة الإسلامية من صحابة الرسول لذلك فقد خيمت على أجواءها روحية كبيرة نابعة من تعظيم الإسلام ورموزه.[35] وقد شكلت هذه الحواضر تدريجيا، بآلياتها الخاصة وعلى طريقتها و"مأثرتها الإسلامية" الخاصّة. وقد ساهمت مساهمة هامّة فيفي إثراء الإسلام الديني شكل كبير فضلا عمّا نالته من هيبة مرتبطة باحتكارها شؤون الحكم والسياسة في البداية.

كان لأهل الكوفة وأهل البصرة مآثر أسلافهم وأمجاد آبائهم التي عظموها وحملوا لها كثيرا من التقدير. و لم تكن هذه المآثر قبلية فحسب بل وإسلامية أيضا. ومن ثمة فقد انصبّ وعي المتأخرين المتأخر على اقتفاء مساهمة الأسلاف في بناء الإسلام دينا ودولة فشكلوا مدونة تاريخية محلية ثرية اختلطت فيها الحقيقة بالخيال والوقائع بخيوط الأسطورة. وقد جدّ الرواة والإخباريون في تأصيل سير الأسلاف في تربة الإسلام الأوّلي، فقدموا تراجم مستفيضة لأجيال البصريين والكوفيين الذين شاركوا في المأثرة الإسلامية وتاريخ البدايات. وتقدم بعض المصنفات المتأخرة صورة مكثفة عن قوة الحدث الإسلامي في كلّ من الكوفة والبصرة فلا ريب أن مؤلفا ككتاب الطبقات لابن سعد – وهو بعد بصري المولد والنشأة– يعكس تطلع الإخباريين والرواة المحليين إلى رفع مرتبة البصرة والكوفة اللتين استوطنهما الصحابة والتابعون من أصحاب المجد الإسلامي فنالا تفوقا عن سائر الأمصار الأخرى. ويمكن أن نرجع ذلك ربّما إلى بروز حمية إقليمية ونوع من التعصب للخصوصية المحلية اللذين خيّما على أجواء تجميع المادة التاريخية وتدوينها. وقد اقتضى ذلك من الرواة والإخباريين استنباط آليات جديدة أهمها تعديل معايير الانتماء إلى النخبة الإسلامية من صحابة وتابعين حسب مقتضيات الظروف. وقد مكن تكييف هذه المعايير مع الخصوصية المحلية من جعل البصرة والكوفة وأهلهما في قلب سردية التأسيس، تلك التي استمدت منها أطياف واسعة من المجتمع مكانتها وتميزها وأحيانا شرعيتها السياسية.

حوّل الوعي التاريخي البصري والكوفي المتأخران سردية البدايات الإسلامية إلى "تاريخ مقدس " امتزجت فيه الوقائع الحقيقية بالأسطورة. و قد توصّلت هذه الأوساط الإخبارية فيما يبدو إلى ضبط قوانين صارمة للذاكرة المحلية، أثرتها وطورتها أجيال الرواة والمؤرخين كابرا عن كابر في إطار بناء مدونة تاريخية محلية قوامها التمثل الموحّد لتاريخ الآباء المؤسسين[36] على قاعدة الانتماء المجالي والعصبية للموطن. غير أن العناية بالمأثرة الإسلامية للأسلاف تتنزل أيضا في

تاريخ الإرسال: 2021/10/07 تاريخ القبول: 2021/11/30 تاريخ النشر: 28 /2021/12

إطار الصراع بين أهل البصرة وأهل الكوفة. فبعد أن كان صراعا سياسيا، اكتسى الصراع بين المصرين طابعا فكريا وثقافيا قوامه المفاخرات الإقليمية والتعاظم بالمآثر القبلية والدينية[37]. وقد أفضى ذلك إلى العناية عناية فائقة بتجميع عناصر الذاكرة الإسلامية الكفيلة بمنح أهل هذا المصر أو ذاك حجة على فضلهم في الدين و دليلا على تفوقهم فتشكّلت صور متسقة عن الأسلاف نال فيها الخيال حيّزا كبيرا على حساب التاريخ الواقعي .

وتحت تأثير الحمية للموطن وللمدينة، صنع التقليد التاريخي المتأخر ما يمكن تسميته بشخصيات/رموز فكان لكل مصر رجالاته وأعلامه الذين يفاخر بسيرهم وأخبارهم وما نالوه من شرف وسؤدد أو فضل ومكانة في الإسلام. وقد كانت هذه النزعة أكثر قوة في البصرة منها في الكوفة وذلك لأنّ الضمير التاريخي الكوفي كان خاضعا أكثر من نظيره البصري للحواجز الإيديولوجية ومخترقا بالإحن السياسية. ولنضرب على ذلك مثلا :يجد المؤرخ مادة مستفيضة حول الأحنف بن قيس "سيد أهل البصرة" في صدر الإسلام والعصر الأموي. وقد أحيطت حياته وأخباره بكساء أسطوري وغدت الشخصية نموذجا فريدا وموضوعا جذابا اقتفى عناصره مؤرخو البصرة ورواتها في كثير عناية. ويمكن القول بأن سيرة "حليم العرب " كما سماه التقليد التاريخي المتأخر أصبحت عبارة عن تراث محلي خاصّ بالبصرة وأهلها على اختلاف انتماءاتهم القبلية واتجاهاتهم السياسية والإيديولوجية. ومن الملفت أننا لا نقع تقريبا على بناء مماثل حول أي من أشراف الكوفة التي كانت هي الأخرى" جمجمة العرب " ومستقر وجوه القبائل العربية وأشرافها. لكن مهما يكن من هذا الاختلاف ، فقد كان الاحتجاج لهذه الشخصيات /الرموز بمثابة الاحتجاج لفضل أهل المصر عامّة لذلك فقد أضاف كل جيل من الرواة والإخباريين لمسته الخاصة إلى البناء السردي الذي كان آخذا في التشكل والذي كان يحظى بتصديق كبير من العامة والخاصّة على حدّ السواء.

لقد حافظت الذاكرة المحليّة على ذكرى الأوّلين وأعطتها بعدا أكثر شمولا بتحويلها إلى نماذج أسقطت عليها صورة وقيم ومثل الإنسان العربي القديم ومسلم الأمصار في القرن الأوّل للهجرة. وقد شحنت الروايات المحلية برمزيات متعددة اجتمعت فيها عناصر الخيال والتأريخ ضمن بناء سردي ثري.

4. الخاتمة:

بنى الرواة والإخباريّون المتأخّرون بعناية كبيرة سير الجيل الأول من العرب المسلمين التي كانت مجلّة بتقدير وانجذاب كبيرين. وقد تغذّت هذه المدوّنات بشكل رئيسيّ من الضّمير الاجتماعيّ والدينيّ الذي خيّم على أجواء تدوين المادّة التّاريخية وحفظها. فقد كان الآباء الأوّلون رمزا للهيبة القبليّة التليدة والإسلام الأصيل اللّذين أصبحا موضوع تقدير وجاذبية كبيرين في أواخر العصر الأموي وفي العصر العباسي على وجه الخصوص. وفضلا عن ذلك، فقد كانت هذه الشخصيّات تمثّل رموزا إقليمية بالنسبة لأهل الأمصار فاستمد البناء الروائيّ مادته من مشاعر العزة الإقليميّة والعصبيّة للموطن. ويتّضح من خلال ما تقدّم بأن التأثيرات على الوعي والكتابة التاريخيّين الإسلاميّين ليست سياسية أو مذهبية فحسب وإنما هي تتّصل بمفاهيم جديدة للانتماء وخصوصا الانتماءات الإقليمية التي اخترقت إمبراطورية الإسلام .

تاريخ الإرسال: 2021/10/07 تاريخ القبول: 2021/11/30 تاريخ النشر: 28 /2021/12

*** الهوامش :

[1] **جعيّط هشام، أورو**با والإسلام ، دار الطليعة ،بيروت،(د.ط) 1978.ص81.

[2] جعيّط هشام ، في السيرة النبوية –2–:تاريخية الدعوة المحمّدية في مكة، دار الطليعة ، بيروت،(د.ط)، 2007، ص35.

[3] صاعد الأندلسي أبو القاسم بن أحمد القرطبي (ت462هـ/1070م)، طبقات الأمم، بيروت،(د.ط)، 1985، ص128.

[4] جعيّط هشام، الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي، دار الطليعة، بيروت،ط2، 1990،ص 153 الجابري محمّد العابد ، تكوين العقل العربي، المركز الثقافي العربي، بيروت ،(د.ط) ،1990، ص60 أمين أحمد، ضحى الإسلام، المكتبة العصرية، بيروت،(د.ط)، 2006، ج1، ص 50 و ما بعدها.

Cheddadi, Abdessalam, Les Arabes et l'appropriation de l'histoire : Émergence et premiers développements de l'historiographie musulmane jusqu'au II/VIIIème siècle, Paris, 2004.p161.

Cahen, Claude, L'Islam des origines au début de l'empire ottoman, Hachette –Pluriel, Paris, 1997 pp141 et pp. suiv..

[5] الجابري محمّد العابد، تكوين العقل.. ص62.

[6] ابن حمدون، بهاء الدين محمد بن الحسن البغدادي(ت562هـ/1167م)، التذكرة الحمدونية، تحقيق إحسان عباس وبكر عباس، دار صادر، بيروت،(د.ط)، 1417، هـ. ج1،ص338 الصفدي صلاح الدين خليل بن أيبك(ت764هـ/1362م)، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت،(د.ط)، 1420ه. ج7، ص205 .

[7] نشأ المأثور الإسلامي على قاعدة 'قراءة الماضي التأسيسي. ولا يتعلق الأمر بجنس السير وكتب الأخبار فحسب بل يشمل أيضا الأدب الفرقي –المذهبي. فقد قدمت هذه الفرق نظريات سياسية و دينية عوّلت في صياغتها على قراءة واسترجاعية للماضي المشترك. وقد نشأ ثراء المأثور الإسلامي على قاعدة هذه القراءات المتباينة لما وقع اعتباره النواة الصافية، الأصيلة والأصلية لتاريخ جماعة المؤمنين. و أثرت الأسر المتنازعة على الحكم والتي انطلق كل منها لصيغة مخصوصة للشرعية السياسية أو الدينية، أيما تأثير في تشكل هذه الأدبيات .وقد كان لهذه الأسر حزام مذهبي –فرقي إن جاز القول، ذلك أن القضية ترتبط بصناعة دعاية سياسية–دينية متكاملة هدفها إضفاء الشرعية على الحكم أو على الثورة والانتفاضة ضد الحكم القائم فقدم تيار الجبرية مثلا دعما إيديولوجيا –فرقيا للأمويين خدمهم في ترسيخ مبدإ "سلطان جائر ولا فتنة ساعة" أي القبول بجور الحاكم وظلمه خوفا من استشراء الفتنة والاقتتال. وقد عمل الأمويون على تثبيت هذه الإيديولوجيا نظرا لشرعيتهم الممجوجة التي كانت محل مؤاخذات قوى عديدة كما عوّل العباسيون زمنا على المعتزلة رغم تقلب علاقتهم بهم. وقد استندت إمارات الشيعة والخوارج في المشرق والمغرب، على متون نظرية متسقة وغزيرة.أنظر بهذا الخصوص:

ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر(681هـ/1282م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت،(د.ط)،، (د.ت)، ج5، ص123 الصفدي، الوافي.. ،ج4، ص57. الذهبي، شمس الدين(ت748هـ/1348م)

تاريخ الإرسال: 2021/10/07 تاريخ القبول: 2021/11/30 تاريخ النشر: 28 /2021/12

سير أعلام النبلاء، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت،(د.ط)،(د.ت)،ج5، ص430 ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل الدمشقي (ت774هـ/1372م)، البداية والنهاية ،تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت،(د.ط)، 1396هـ، 1971م، ج9، ص. 220 .

ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني(ت852هـ/1449م)، لسان الميزان، تحقيق دائرة المعارف النظامية بالهند، مؤسسة الأعلمي، بيروت،(د.ت)، 1406هـ. ج 2، ص164 المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت346هـ/957م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة الإسلامية، بيروت،(د.ط)، (د. ت)،. ج3، ص234 ابن عساكر أبو القاسم علي بن الحسن(ت571هـ/1176م) ، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، تحقيق عبد القادر بدران، بيروت ، (د.ط)، 1979/1399م.، ص186.

[8] ابن الأثير ، عز الدين بن محمّد الجزري(ت 630هـ/1232م)، الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت،(د.ط)، 1978 ج 4، ص255 الذهبي، شمس الدين(ت748هـ/1348م) ، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار إحياء الكتاب العربي، بيروت،(د.ط)، 1413 ج3، ص86 المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص234 الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير(ت310هـ/922م)، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، بيروت،(د.ط)، 1967. ج4، ص255/ ج7ص269-270

[9] الجابري محمّد عابد. تكوين...، ص60 جعيّط هشام، الشخصية... ص122-123.

Cheddadi Abdessalam, Les Arabes et l'appropriation .... , pp38-49.

[10] جعيّط هشام، تاريخية ..،ص35-36.

[11] الدوري عبد العزيز ، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، دار المشرق، بيروت،(د.ط)، 1983،ص118 دي بريمار ألفريد لويس ، تأسيس الإسلام بين الكتابة والتاريخ، ترجمة عيسى محاسبي، دار الساقي، بيروت، الطبعة الأولى، 2009.، ص13-ص28 شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون. دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت،(د.ط)، 1983، ص57-ص64.

[12] الدوري، عبد العزيز، بحث في نشأة... ص120 شاكر مصطفى، التاريخ العربي.. ، ص365-376

العظمة عزيز، الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية مقدمة في أصول صناعة التأريخ العربي، دار الطليعة، بيروت،ط2، 1995. ، ص72.

Cheddadi Abdessalam, Les Arabes et l'appropriation… 275-279

[13] يظهر هاجس تصنيف الشخصيات لدى أصحاب الاتجاه القبلي و اتجاه أهل الحديث على السواء.

[14] عمامو حياة، أصحاب محمّد ودورهم في نشأة الإسلام، دار الجنوب للنشر، تونس،ط1، 1996 ، ص79.

[15] المرجع نفسه،ص80.

[16] جعيّط هشام، تاريخية الدعوة...، ص33 و أيضا في كتابه الموسوم : الفتنة: جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر، ترجمة خليل أحمد خليل، دار الطليعة بيروت ، بيروت،ط4، 2000. ص151 و ما تلاها .

Cheddadi Abdessalam, Les Arabes et l'appropriation … , p25.

[17] نجد هذه العلامات السردية في كتب الطبقات خاصة.

تاريخ الإرسال: 2021/10/07 تاريخ القبول: 2021/11/30 تاريخ النشر: 28 /2021/12

[18] المرجع السابق، ص 64 جعيط هشام، تاريخية...، ص 35 و ص39. دي بريمار ألفريد لويس ، تأسيس الإسلام.... ص24-25.

Cheddadi Abdessalam, Les Arabes et l'appropriation … , pp38-49.

[19] جعيّط هشام ، الشخصية العربية.. ، ص154 الجابري محمد العابد ، تكوين.. ، ص 92-93.

[20] دي بريمار ألفريد لويس ، تأسيس الإسلام.. ص 23-24.

[21] اكتست القيم القديمة جاذبية كبرى لدى الأرستقراطيات العربية وغيرها في القرون الهجرية الأولى، على الأقل منذ أن تشكلت نواة الحاشيات على الطراز الملكي وبرزت "الخاصة "كهياكل متميزة عن الجمهور. وقد غذى هذا الانجذاب إلى القيم الصافية والأصيلة للعرب القدامى –أو ما اعتبر كذلك بالأحرى – المخيال الجماعي وضمير جمهور المؤمنين. وقد خيّم على أجواء تدوين هذه المواريث حنين حقيقي إلى الماضي خصوصا و أن الماضي القبلي مثل تاريخا أسرويا بالنسبة لقسم كبير من الخاصة و الدوائر العليا للمجتمع أواخر العصر الأموي وخصوصا في العصر العباسي. وقد تشكلت النواة الأكثر قدما للمادة المتوفرة حول القبائل العربية على قاعدة تقدير الأخلاف لماضي الأسلاف. ولئن حملت هذه المادة إشارات تاريخية بالغة الأهمية، فقد تداخلت إلى حدّ بعيد مع الأساطير، "أساطير الأوّلين".

لكن الماضي الاجتماعي العربي من صنع الحضّر تقريبا. لذلك، لا يستبعد أن الرواة والنسابة أسقطوا هيئة الأرستقراطيات الأموية و العباسية وأعرافها على ماضي العرب القدامى، الشعب الصحراوي المفتقر إلى نموذج حضاري كبير. تبلور ذلك في أجواء صراع ومنافسة بين الدوائر الدينية –المذهبية التي شكل الحدث الإسلامي محور اهتمامها وحقل اشتغالها من ناحية والنخب القبلية و الأرستقراطية التي أحيت نموذج العروبة القديمة المجللة بقيم السخاء و المنعة و النجدة. وقد أحيت هذه النخب، وهي بعد متنفذة في البلاط وفي دوائر الحكم، الزمن الاجتماعي العربي القديم وشكلت من خلاله نموذجا معاكسا للمعيار الإسلامي الذي كان حكرا على الأوساط المذهبية المغلقة التي تأرجحت علاقتها بالبلاط بين الموادعة والقطيعة. وقد تمخض هذا الصراع عن بروز سفحين للمأثور الإسلامي الكلاسيكي :السفح الاجتماعي والسفح الديني. وقد تكشفت هذه الثنائية من خلال بروز أجناس أدبية متقاربة من حيث المنهج متباعدة من حيث المضامين والغايات. وهو ما يتجلى من خلال جنسي التراجم و أدب الطبقات. فكلاهما يعنيان بحيواة الرجال و آثارهم. لكن أدب التراجم اعتنى غالبا بوجوه القبائل و بالشخصيات المنحدرة من الخلفية القديمة. وهو ما يظهر في كتاب البلاذري حول "أنساب الأشراف" مثلا. أما أدب الطبقات، فقد اعتنى على وجه الخصوص بالشخصيات الدينية فاعتمد على الزمن الإسلامي في تبويب المادة التي عرضها. ويظل كتاب "الطبقات الكبرى لابن سعد من أبرز النماذج عن هذا الجنس.

[22] تنشأ الثقافة الكتابية المتسقة والرفيعة في كنف التقاليد الملكية والبلاطية بلا ريب. ففي بلاد الإغريق في العصرين العتيق والكلاسيكي، تشكلت الثقافة الرفيعة في كنف المدينة – الدولة وارتبطت إلى حدّ بعيد بالحاشية والأرستقراطيات المحيطة بدوائر الحكم. وفي الصين واليابان الإمبراطوريتين، يرجع إلى الأسر النبيلة التي شغلت الوظائف السامية في البلاط والجيش وكان من بينها المثقفون من وزراء ومستشاري الإمبراطور، فضل تشكيل نواة الثقافة الوطنية المتماسكة. وكذا في الإمبراطورية الإسلامية حيث نهضت الأسر الكبرى المحيطة ببني أمية ثم بالعباسيين خصوصا بدور كبير في تشكل الثقافة الرفيعة والعناية بالماضي المشترك للأمة. وقد لعبت الأرستقراطيات في أوروبا في القرون الوسطى والفترة الحديثة دورا أساسيا في الحركة الفكرية أو في الإصلاح الديني مثلا. إذن فالقضية تتعلق تقريبا بتطور طبيعي "من الأدنى إلى الأرقى " كما قال هشام جعيّط. لكن دور هذه الأسر والحاشيات في بناء الثقافة العليا الرفيعة يرتبط أيضا برغبتها في تخليد ذكراها و بناء رواية عائلية تمجد تاريخ الأسرة أو السلالة. وقد تنافست

تاريخ الإرسال: 2021/10/07 تاريخ القبول: 2021/11/30 تاريخ النشر: 28 /2021/12

الأسر الكبرى في العهد العباسي فيما يبدو للعب دور في احتضان الرواة والشعراء. أنظر: أمين أحمد ، ضحى الإسلام..، ص305 وما يليها.

[23] حول مفهوم الهوية المجالية والتضامن الترابي أنظر:

GOFFMAN Erving, La mise en scène de la vie quotidienne, Paris, Ed.de Minuit, 1973
HALL Edward , La dimension cachée, Paris, Seuil, (trad. française) 1971.
MALMBERG Torsten , Human Territoriality. Survey of Behavioral Territories in Man with Preliminary Analysis and Discussion of Meaning, La Haye, Mouton, 1980.

[24] لا يرد الأمر إلى دور السلطة و هاجس الشرعية إن جاز لنا الاقتباس عن عنوان مؤلّف أستاذتنا حياة عمامو. ولئن لا يخلو هذا الطرح القديم –الذي لا زال يكتسي جاذبية لدى طيف كبير من المحدثين – من وجاهة، فهو تبسيطي إلى حدّ كبير و مستمد من المقاربة السياسوية الكلاسيكية لمؤرخي الأدب العربي. و عادة ما يقع تقديم القضية بوصفها استثناء إسلاميا، كأنما يقع التغاضي على حقيقة ارتباط التقليد اليوناني بتكشف المدينة –الدولة وتناسي أن التقليد المسيحي لم يتبلور إلا بعد القرن الرابع عندما أعطته الإمبراطورية حمايتها و شخصيتها. وبالتالي فإنّ فما ينطبق على التراث الإسلامي مرتبط بقوى الحضارة و قوانينها في نهاية المطاف. لككنا لن نجاري هذا الرأي الذي يترع عن الجهود المعرفية، في التاريخ أو الأدب أو سواها، كل صفة خلاقة. فللعقل فتوحاته هو الأخر، فيما يتعدى أنساق السياسي وقوته. ومهما كانت دولة الأمويين و العباسيين قوية مقتدرة، فقد كان للفكر الحر رواده وكذا تشكل التقليد الإسلامي المتماسك الكلاسيكي، بالدولة وفي الدولة وخارجا عنها أيضا.

هي إذن قضية معقدة ومركبة. ولئن بسطها الاستشراق الكلاسيكي وعالجها التشكيكيون بكثير عجلة وكبير شطط، فقد وضعوا أرضية منهجية عميقة لمعالجتها. و مهما يكن من أمر، فقد استمد المأثور التاريخي، على وجه الخصوص، طابعه الرسمي من عوامل متعددة. على سبيل المثال تكشف وعي بالتاريخ وبقوة الماضي لدى الخاصة والجمهور على السواء. إذن، فالطابع الرسمي في نظرنا ينطوي على اعتبار ما تتوفر عليه مصادرنا ذاكرة جماعة المؤمنين في نهاية المطاف، المفعمة بالحماسة الدينية والقومية على السواء. فقد تغلبت الظاهرة العربية بالإسلام لكنها حافظت على قوتها و لم تنحل تماما كما الثقافة الفارسية التي انخسفت بقوة وغمرها الإسلام.

[25] أعتقد أن هذا الصراع بين هذه المجموعات انتقل من مجال السياسة و الحكم إلى مجال الفكر. ويمكن القول أن قسما من المأثور التاريخي و الأدبي الإسلامي تشكل في كنف المنافسة بين سكان الأقاليم والأمصار.

[26] تأثرت مقاربتنا كثيرا بنظريات بول ريكور العميقة الذي يعتبر أن "كل سرد يحوي بالضرورة بعدا انتقائيا. إن أدلجة الذاكرة ممكنة بفضل التنوع الذي يعطيه عمل التصوير السردي و تطعم استراتيجيات النسيان مباشرة على عمل التصوير هذا :يمكننا دوما أن نقص بطريقة مختلفة عن طريق استبعاد بعض التفاصيل أو نقل مواقع الأهمية أو في تصوير المشاركين في العمل بطريقة مختلفة وكذلك مجريات الأحداث (..) فإن الخطر الداهم في نهاية المطاف يكمن في التصرف في التاريخ المسموح به، المفروض والمحتفى به والذي تقام له الحفلات التذكارية، التاريخ الرسمي. إن مورد السردية يصبح هنا الفخ المنصوب حين تقود قوى عليا الحبكة السردية وتفرض رواية واحدة شرعية عن طريق الترهيب أو الإغراء التخوف أو التملق"

ريكور، بول، الذاكرة التاريخ و النسيان، ترجمة و تقديم و تعليق جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة،بيروت،(د.ط)، 2009، ص648.

تاريخ الإرسال: 2021/10/07 تاريخ القبول: 2021/11/30 تاريخ النشر: 28 /2021/12

[27] حيث ظهرت مؤلفات كثيرة توحي عناوينها بهاجس التأريخ للإقليم و المصر كفتوح مصر لابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والمغرب لابن عذاري.

[28] لقد أراد أصحاب التراجم والإخباريون تقديم لوحات متكاملة عن هذه الشخصيات التي واكبت عصر التأسيس. وقد طورت هذه الأوساط التي اشتغلت بشكل جماعي على الطراز المذهبي، ألياتها المنهجية لبناء مسار شخصيات مثلت موضوع عاطفة وجاذبية كبيرة كالأحنف وغيره. لذلك، تشكلت مادة غزيرة مستفيضة حول هذه الشخصيات، اختلطت فيها الوقائع و التاريخ بالخيال والتخييل.والواقع أن هذه المجهودات تدخل في دائرة "بناء التاريخ القومي " كما عبّر عن ذلك الجابري. لذلك، فقد اختلطت بحماسة دينية و قومية كبيرة انعكست، بلا ريب، على المادة المقدمة التي وقع تطويعها لبناء تاريخ جذاب، مجيد ومتسق. الجابري محمّد العابد ، تكوين العقل...، ص 64.

[29] جعيّط هشام، الفتنة..، ص309.

[30]الواقع أن هذه القضية محل إجماع و خلاف، في ذات الوقت، بين جمهور الدارسين. فالمؤرخون المحدثون، عربا كانوا أو الإخباريين الذين تناقلوا كابرا عن كابر، الروايات و الأخبار التي شكلت قاعدة المأثور الإسلامي الكلاسيكي في صيغته الرسمية المتسقة التي وصلتنا. لا يقتصر الطابع الرسمي للروية الإسلامية على تبنيها من قبل السلطة إذ أن مدلولها يغدو محدودا وفقا لذلك. فالرواية الإسلامية رسمية لخاصيات ثلاث رئيسية :

*أولا :أنها ثمرة عمل جماعي، عمل أوساط مذهبية شديدة النفوذ و قادرة، بالاعتماد على آلياتها الدينية وعلى تحالفها مع السلطة على فرض صيغتها على الجمهور واجتثاث أي رواية معاكسة قد تقدم عرضا مختلفا عن ذاك الذي ترتضيه رؤية الفقيه و رؤية الحاكم على السواء.

*ثانيا :هي تنطوي على ذاكرة الجمهور و تحظى بقوة تصديق المؤمنين. فطابعها الرسمي لا يتوقف على أن تقدم صيغة مكتوبة للتاريخ و الماضي الأصلي بل لأنها تعكس الوعي المقنن لجمهور المؤمنين بالماضي، تقنين اضطلعت به دوائر مغلقة و متماسكة كما ذكرنا لكنها مفعمة و مخترقة بذات الروحية العالية والانجذاب العاطفي إلى ماضي الأصول الذي كان يخيم على أنفس جماعة المؤمنين.

*ثالثا :هي رسمية من جهة أنها رواية داخلية تمثل رواية المسلمين لتاريخ الإسلام. وهي محصنة بالتضامن الديني الذي يدفع الجمهور والخاصة على السواء، إلى تصديقها والاستماتة في تصديقها لأنها تقدم، بحجة ووزن المكتوب، عناصر الهوية الدينية القوية لجماعة المؤمنين.

[31] أنظر بهذا الخصوص: الدوري عبد العزيز بحث في نشأة... ، ص118.

[32] المرجع السابق ...ص 35 وما يليها محمد عابد الجابري ، تكوين العقل...، ص64.

العظمة عزيز ، الكتابة التاريخية ..130- 140 جعيّط هشام ، تاريخية الدعوة..، ص 26-42.

[33] تجلى ذلك في تعديل المعايير التصنيفية للصحابة والتابعين في كتب الطبقات. وقدمت حياة عمامو عرضا مكثفا ودقيقا حول هذه التصنيفات في مؤلفها حول الصحابة. أنظر: عمامو حياة، أصحاب محمّد ....ص50 وما يليها.

[34] تعود جذور التمايزات الإقليمية إلى ظروف الفتح الأول للأقاليم الكبرى التي شكلت السفوح المجالية للإمبراطورية التي حكمها بنو أميّة ثم بنو العباس. فقد تكشفت هويات إقليمية مبنية على التضامن الترابي. تتحدّث المصادر عن "أهل العراق "، أهل الشام "، "أهل إفريقية " مثلا وهذه مصطلحات قوية تدل على تضامن و هوية ما فوق –قبلية. ويبدو أن اعتماد بني أمية على "أهل الشام" غذى هذا التضامن كلما تدخل الجند الشامي في إقليم لقمع التحركات المعارضة. وقع ذلك بشكل مبكر في العراق أثناء الصراع بين علي ومعاوية حينما تداخلت قضيتا علي ومعاوية مع الإحن بين الشاميّين والعراقيين التي يعود بعضها إلى فتوح أرمينيا ربّما.

تاريخ الإرسال: 2021/10/07 تاريخ القبول: 2021/11/30 تاريخ النشر: 28 /2021/12

وفي إفريقية، فقد ظهر "أهل إفريقية " كوحدة متضامنة في وجه القادمين من الشام . أما في الأندلس فقد عرف الوافدون الجدد من الشام ب"الشاميين " في حين أن القدامى عرفوا" بالبلديين " أي أهل البلد و هي بالتالي هوية ذات قاعدة إقليمية –مجالية. والحقيقة أن هذه الهويات الإقليمية القوية تقف وراء تفكك الإمبراطورية الإسلامية وتفجر الخصوصيات الإقليمية التي تحولت إلى تجارب استقلالية ملموسة مثلما وقع في إفريقية و حتى في خراسان حيث وجد العباسيون دعما حقيقيا باسم الخصوصية الجغرافية والشعور المحلي القوي.

[35] جعيّط هشام، الفتنة..، ص157.

[36] أي باعتبارها عناصر من الذاكرة المحلية. و يبدو أن العامل الأسروي أثر بشكل كبير في اتخاذ هذه الكتابات طابع المحلية.

[37] حلل صالح أحمد العلي ذلك بخصوص الكوفة و البصرة. أنظر: العلي صالح أحمد ، مفاخرات الكوفة والبصرة، مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد 42، ج3، 1992، (ص23-48)، ص38.

6. . قائمة المصادر والمراجع:

أوّلا: المصادر

1) ابن الأثير ، عز الدين بن محمّد الجزري(ت 630هـ/1232م)، الكامل في التاريخ، دار الفكر،بيروت،1978.

2) ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني(ت852هـ/1449م)، لسان الميزان، تحقيق دائرة المعارف النظامية بالهند، مؤسسة الأعلمي،بيروت،1406هـ.

3) ابن حمدون، بهاء الدين محمد بن الحسن البغدادي(ت562هـ/1167م)، التذكرة الحمدونية، تحقيق إحسان عباس وبكر عباس ، دار صادر ، بيروت،1417هـ.

4)ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر(681هـ/1282م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة،بيروت،د.ت .

5)ابن عساكر أبو القاسم علي بن الحسن(ت571هـ/1176م) ، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، تحقيق عبد القادر بدران، بيروت،1399هـ/1979م.

6)ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل الدمشقي (ت774هـ/1372م)، البداية والنهاية ،تحقيق علي شيري، ، دار إحياء التراث العربي،بيروت،1396هـ/1971م .

7)الذهبي، شمس الدين(ت748هـ/1348م) ،

-تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري،دار إحياء الكتاب العربي،بيروت،1413هـ .

– سير أعلام النبلاء، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ، بيروت، دار الكتب العلمية،بيروت،د.ت . .

8) صاعد الأندلسي أبو القاسم بن أحمد القرطبي (ت462هـ/1070م)، ، طبقات الأمم، بيروت،1985.

9) الصفدي صلاح الدين خليل بن أيبك(ت764هـ/1362م)، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، بيروت ، دار إحياء التراث.

10)الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير(ت310هـ/922م)، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث،بيروت،1967.

تاريخ الإرسال: 2021/10/07 تاريخ القبول: 2021/11/30 تاريخ النشر: 28 /2021/12

11) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت346هـــــــ/957م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة الإسلامية،بيروت،د.ت .

ثانيا :المراجع

❖ **باللّغة العربيّة**

1) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، المكتبة العصرية، بيروت،2006..

2) محمّد العابد الجابري، تكوين العقل العربي، المركز الثقافي العربي،بيروت،1990.

3) جعيّط هشام

-أوروبا والإسلام ،دار الطليعة ،بيروت،1978.

- الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي،دار الطليعة، بيروت،1990.

- الفتنة: جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر، ترجمة خليل أحمد خليل، دار الطليعة،ط4،بيروت،2000.

- في السيرة النبوية -2-:تاريخية الدعوة المحمّدية في مكة، بيروت، دار الطليعة،بيروت،2007.

4) عبد العزيز الدّوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، دار المشرق،بيروت،1983 .

5) ألفريد لويس دي بريمار ، تأسيس الإسلام بين الكتابة والتاريخ، ترجمة عيسى محاسبي الطبعة الأولى، دار الساقي،بيروت،2009..

6) بول ريكور ،الذاكرة التاريخ و النسيان، ترجمة و تقديم و تعليق جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة،بيروت،2009.

7) مصطفى شاكر ، التاريخ العربي والمؤرخون. دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام، دار العلم للملايين،بيروت،1983.

8) عزيز العظمة ، الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية مقدمة في أصول صناعة التأريخ العربي، دار الطليعة،بيروت،1995.

9) صالح أحمد العلي،"مفاخرات الكوفة والبصرة"، مجلة المجمع العلمي العراقي،العراق، مجلد 42، ج3، (ص23-48)،

10) عمامو حياة، أصحاب محمّد ودورهم في نشأة الإسلام، دار الجنوب للنشر،تونس،1996.

❖ **المراجع باللغات الأجنبية:**

1)Claude Cahen , L'Islam des origines au début de l'empire ottoman,Paris,1997.

2) Abdessalam Cheddadi , Les Arabes et l'appropriation de l'histoire : Émergence et premiers développements de l'historiographie musulmane jusqu'au II/VIIIème siècle, Paris,2004.

3)Evering Goffman , La mise en scène de la vie quotidienne, Ed.de Minuit, Paris,1973.

4) Edouard HALL , La dimension cachée,Seuil, Paris, 1971.(trad. française).

5)Torsten MALMBERG , Human Territoriality. Survey of Behavioral Territories in Man with Preliminary Analysis and Discussion of Meaning, La Haye,1980.